Journal of Yarmouk Volume (22) Issue (1) May (2024)

ISSN 2075-2954 (Print)
Journal of Yarmouk available online at
https://www.iasj.net/iasj/journal/239/issues
مجلة اليرموك تصدرها كلية اليرموك الجامعة

أفق الانفتاح و سوسيولوجيا المكان في الرسالة الشعرية

م. م . عبير جمعان عايف
كلية الآداب جامعة ذي قار

The horizon of openness and the sociology of place in poetic letter

Lect. Asst : Abeer Jumaan Aiyf
University Of Thi-Qar – College Of Arts
Abeeraliraq8@gmail.com

المُلخص:

ندرس في هذا البحث المكان بصفة عامة، وعن استمرارية ظهوره في الشعر منذ زمن امرٌ لا حصر له، لأنه يشارك في تكوين حياة الناس، وترسيخ كيانهم وتثبيت هويتهم وتأطير طبائعهم ووشمها بطابعه الخاص، ومن ثم تحديد تصرفاتهم وتوجيهاتهم وادراكهم للأشياء، ولأهمية المكان في بناء السرد والحكاية في الأدب بصورة عامة. يهدف البحث لدراسة المكان في الرسالة الشعرية.قد جاء البحث على مبحثين لدراسة تتناوب في التشكيل بين الثبات والتحول والانغلاق والانفتاح ومحدداته السوسيولوجية والنفسية . الكلمات المفتاحية : مكان، رسالة، شعرية، فضاء، الإيقاع، الشاعر، الشعور .

Abstract :

Talking about place in general, and its continued appearance in poetry and prose for a long time, is an infinite matter, because it participates in binding people, consolidating their being, exercising their identity, shaping their natures, and marking them with its own character, thus defining them all and making them realize the life of things, and the importance of place in constructing the narrative and the story in Literature in general. To study the place in the poetic message. There was research in two sections, the study of the formation between stability and transformation, openness and openness, and its sociological and psychological determinants Keywords: place, message, poetic, space, rhythm, poet, feeling

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. أمَّا بعد.يُعدُّ المكان من أهم المكونات السردية خاصة في بناء الحكي، فهو الحيز الذي يؤطر الأحداث، والمسرح الذي تتحرك فيه الشخصيات، بل يتجاوز ذلك بوصفه إطاراً وعنصراً فعالاً لا غنى عنه، ذلك أنه مشحونٌ بدلالات اكتسبها بوساطة علاقته الجوهرية بالإنسان وكيانه[1]، ويؤلف المكان اطاراً محتوياً ومتفاعلاً مع سائر العناصر البنائية الأخرى، ويقوم بأداء وظائف عدة في النصوص السردية، لعل أبرزها في نظر النقاد هي قابليته على استيعاب الزمن مكثفاً فيه[2]، فوظيفة المكان تتمثل((في احتواء الزمن مكثفاً في مقصوراته المغلقة التي لا حصر لها))[3]، ولابد من الإشارة إلى الاختلاف في توظيف البنى المكانية في الأدب، بين الشعر والرواية , فإذا كانت الروايات نظاماً((من العلاقات المجردة، يستخرج من الأشياء المادية الملموسة بقدر ما يستمده من التجريد الذهني او الجهد الذهني المجرد))[4]، فإنّه في الشعر لا يحتوي الحدث والشخصية وإنّما يكون جزءاً متمماً أي أنّه جزء من التعبير الشعري، فهو تشكيل رؤيوي وليس مساحة ذات أبعاد هندسية، ولهذا يصبح المكان ((جزءاً من التجربة الذاتية بعد أن يفقد صفاته الواقعية ارتباطاً باللحظة النفسية))[5]. ويصبح المكان دلالة انتمائية ونفسية في النصوص الشعرية فهو((وسيلة للإفصاح عن مشاعر الحزن والحنين والغربة والخوف

والقلق))[6]، والمكان في خصوصيته الشعرية يمثل((ترجمة واقعية صادقة لأحاسيس الشعراء، يقترن بالزمن والمصير– الحياة والموت– وبالمرأة والرحلة والحرب تارةً، وأعلى القيم الإنسانية، والكبرياء والشرف والعبادة تارةً أخرى)).[7]وتبدو الشعرية في أجلى صورها ليس في القول الملفوظ أو المكتوب فحسب، بل بشكل الإنسان والطبيعة ، والشاعر في تشكيل المكان في القصيدة يسعى إلى((خلق حالة التوافق بين الحركة التي تموج بها النفس، والحركة التي تموج بها الأشياء))[8]، فالمكان يقف على((دلالة قيم محددة خاصة، كما يفصح عن عقلية الهيأة الاجتماعية، وطرق تفكيرها، ومن خلاله أيضاً يمكن الغوص في طبقات المجتمع ورصد وعيها الطبقي)).[9]وفي الرسالة الشعرية التي تعد جنساً أدبياً تبلور من تماهي النثر والشعر معاً, يلعب المكان إلى جانب عنصر الزمان دوراً حيوياً، بحيث يعمل على تضخيم عنصر الإحساس الجمالي، وعنصري التشويق والتذوق حيال بناء سردي محكم في الرسالة الشعرية, ويعد التحام الأحداث بالأمكنة والشخصيات، ومكونات السرد الأخرى، يغدو من أبرز الخواص الفنية في الرسالة الشعرية، ويتضح ذلك بفعل الحركة فيه، والحياة به، والتعامل معه بوصفه بديهة تمثل حقيقة من حقائق الحياة إن لم يكن هو حقيقة الحياة الأساسية[10]، ومما يساهم في تحقيق تلك الفرضية و تصوير المكان تصويراً موضوعياً هو الوصف.[11]ونجد في الرسالة الشعرية حضوراً متماسكاً بتشكيلات الفضاء وأبعاده المختلفة، لأن أجزاء العمل الأدبي عند الشريف الرضي تشكل التحاماً والتئاماً موضوعياً وسليماً في منطقه وعاطفته ، وهناك مؤثرات عدة أثرت في شخص الشريف الرضي وانعكست على رسائله الشعرية خاصة وشعره عامةً، وساهمت في بلورة شعريته منها المؤثرات الثقافية وأهمها القرآن الكريم، وقومية أبرزها الانتماء إلى العروبة والإحساس بأصالتها، ومؤثرات شخصية قوامها الفخر بالأهل والنسب.[12]وباستقراء المكان في رسائل الشريف الرضي الشعرية جاء البحث على ثلاثة مباحث الأول :طقوسية الثبات ودلالات التحول, والثاني: أفق الانفتاح وكينونة الانغلاق , والثالث: سوسيولوجيا المكان والمحددات النفسية ثم تلته خاتمة وقوائم المصادر والهوامش .

المبحث الأول طقوسية الثبات ودلالات التحول

للإنسان علاقة وثيقة بالمكان بحكم الصلة الوشيجة التي تربط بينهما، بل هي علاقة ضرورة فـ((حاجة الإنسان للمكان ترتبط بصورة أساسية لأهمية وجوده))[13] فوجود الإنسان يشكل حاجة ملحة لوجود المكان أو الحيز الذي يحقق فيه وجوده المعنوي ويشبع رغباته وطموحاته وحاجاته النفسية والفسلجية , والإنسان يعيش بين آفاقٍ رحبة واسعة، الأرض بسعتها والسماء بأفقها اللامتناهي.والمكان على صلة عميقة بموضوع الرسالة الشعرية للشريف الرضي، فقد حمل أبعاداً ودلالات شتى، إذ حمل همومه ومطامحه وتحديّهُ، وفخره بذاته وأهله، و كان رمزاً للشجاعة، والفخر، والطموح إلى العلى، والسعي إلى ما هو أسمى وأرقى، وقد اختار مكانه بدقة، ليؤدي مهمة التعبير عن أفكاره وما يودُّ قوله، ونجد المكان عاكساً لأحلامه، وانتمائه، ورفضه، وطموحه, وألمه، وفرحه.[14]والمكان في حقيقته انتقاء وفكرة تتولد من الإحساس، والشريف الرضي دقيق في اختيار المكان، وما المكان الحجازي إلا انتقاء ناتج عن إحساسه بأهمية المكان والحاجة إليه، فهذا المكان يمثل حقيقة وجود الذات، ومنفذاً يعبر بوساطته عن خلجات نفسية، فالمكان الحجازي مكان الحلم والوجود ، وهو الذي تحلم الذات الإنسانية المؤمنة الوصول إليه، والشريف الرضي ارتبط به وجدانياً ذلك أنه يمثل موطن الأهل والأجداد، فأصبح هويته, وهو(مكان التداعي) يتذكر بوساطته الماضي ويستدعي ذكريات تاريخية ودينية، فالمكان الحجازي يحمل دلالة المكان المقدس الديني، والتاريخي، والسياسي، وهو بؤرة صور الشريف الرضي الشعرية، إذ يمثل الموطن الذي تطمئن فيه الذات، فهو مهرب الراوي من أجواء السياسة والاضطرابات الحاصلة في الواقع أي إنّه تجسيد لهروب الذات من حاضرٍ مرفوض إلى الماضي وأمانيه[15]. وعليه فهو ملاذ للهروب، فالذات تطمئن لهذا المكان المقدس وتنجذب أحاسيسها إليه فالإحساس بالمكان يقود إلى التعرف عليه[16], ويبدو أنه مفعم بمشاعر الشوق والحنين والكثافة المكانية فالمكان وثيق الصلة بعنصر الزمان الماضي، والعامل النفسي، الذاتي أو لحظة الانفعال الوجداني فجميعها عناصر تدخل في بناء الأمكنة.إنَّ المكان يجسد الطلل، وهو تجسيدٌ للحاضر، بل إنّه يأخذ صفة الإلحاح المستمر على عقل الراوي[17]، لأنّ الماضي هو ذكريات الألفة والحب والشباب، لذا نجد لغة الراوي فيما يخص الماضي متأججة كعواطفه في ذلك الماضي[18]، فهو يحاول الهروب إلى ماضيه, والطلل مثير فاعل يحفز على الهروب، وهو ((يفصح عما وصف به منذ القدم من نزعة وجدانية غلبت على طبعه ورققت شعره النازع إلى روح بدوية تكاد تطغى عليه))[19]. إذ يمثل تجربة يتفق عليها جميع الشعراء جيلاً بعد جيل[20]، و قد كان المكان الحجازي شاخصاً في رسائل الشريف الرضي الشعرية، فتميل بنيته في الرسالة إلى النفور من التحول إلى الاستقرار والثبوتية غالباً، ذلك لأن بناءها الموضوعي مسرود إلى مروي له مقصود[21] ومنها:

زَارَ وَ الرّكْبُ حَـرَامُ، أوَداعٌ أمْ سَـلامُ؟

طَارِقاً، وَ البَدْرُ لا يحَـ فِزُهُ إلاّ الظّـلامُ

بَينَ جَمْعٍ وَ المُصَلىّ، رِيمُ سِرْبٍ لا يُرَامُ

وَحُلوُلٍ مَا قَرَى نَا زِلَـهُمْ إلاّ الغَرَامُ[22]

يسرد الشاعر وصفاً للمكان المقدس الذي يمثل السلام والأمان عند الراوي ، فالمقدمة في النص السردي تجمع بين ايحاءات الأمكنة الحجازية(الركب، وسلام، وجمع، والمصلى) , وإنَّ بكاء الأطلال مرتبط بالموطن الأصل، فشعراء العصر العباسي كانوا يخضعون لعاطفتهم القوية المرتبطة بالموطن الأول وهذا ما يبرر ارتباط الشريف الرضي بالمكان الحجازي، والبحث عن الوطن المكاني المفقود هو غاية ينشدها الشاعر ويتساءل عن كيفية الوصول إليها.واستهل الرسالة بفعل ماضٍ(زار) لثبات المكان في ذهنه واستدعائه في كل مناسبة، فالرسالة مرسلة إلى الملك ، فيرسم وصفاً للمكان المقدس وضيوف الرحمن، التي تملأ المكان بوصفها وفود منتظمة في توافدها وسلامها وصلاتها.وإنَّ الحالة النفسية التي كانت تسيطر على السرد جعلت المكان أقرب شيء إلى وعي الراوي، فالمكان الواقعي مرتبط بزمن محدد لتوافد الحجيج السنوي، فالراوي استدعى هذا المكان المعلوم عند المسلمين كافة ليحفز الملك بأن ينجز ما وعده به، كما يفعل الحجاج في إيفاء فرائضهم كل عام, ويدعوه إلى التمسك بوعده والإيفاء به، كي يتم الاستقرار والصفاء والثبات في علاقتهما كقوله:

إني وما رفع الحجيج له عند الجمار شعائر البدنِ

والبيت ذي الأستار يمسحه الذ زاع من شامٍ ومن يمنِ

ما زلت على سنن الحفاظ وكم زال لمعادي لي عن السننِ

سَّرَ الذي اظهرت من كرم وطوى الذي أبديت من حسنِ[23]

إنّ المكان الحجازي عالم مثالي تحن إليه الأرواح وتسعى للوصول له، على حين يبقى الجسد مبعداً أسير الفراق، وهذه هي نقطة النزاع بين الروح والجسد وسبب أو باعث الإبداع، ويرسم الراوي شكلاً آخر لحضور المكان المقدس في رسالته، مستدعياً معه أماكن تاريخية عريقة وهي الشام واليمن ,إذ كان اهل تلك المدن يقصدون مكة في كل عام للحج واهل الحجاز يقصدونها للتجارة .ويذكر الراوي مواصفات المكان ومكوناته(الحجيج، والجمار، والشعائر، والبيت ذي الأستار، ويمسحه) ويبدو إن التجدد باستدعاء المكان ومسرح الحج , دليل على عظمة ذلك الموقف في شعور الراوي واحاسيسه ، ذلك أنه رمز استشهاد وقسم يستعمله الراوي في مواطن عدة في مسروداته ، وقد ظهر تعلقه وتمسكه الديني بمعتقداته المقدسة.وردت في الرسائل الشعرية أماكن الانتقال، بوصفها فضاءً جغرافياً، أو فضاءً نفسياً، مشكّلة تقاطعاً مع أماكن المكوث، والمكان المتحول في رؤيا الراوي الطموحة لا ترضى السكون ولا تقنع بالمكان الكائن على علاقة ثابتة، وإنها تسحب ذلك المكان من ثبوتيته إلى صورة أخرى فلا تبقيها أسيرة دلالاتها الجغرافية والهندسية، فتبتكر أمكنة لا وجود لها في الواقع الجغرافي أو النفسي إنّما هو تحول مكاني من الراوي[24]، والمكان في العمل الأدبي غالباً ما يكون خيالياً حتى وإن بدت عليه صفات الأماكن الواقعية[25]، حيث تشهد هذه الأماكن حركة وانتقال الشخصيات من أماكن إقامتها إلى أماكن أخرى جغرافية كانت أم نفسية مفترضة، فهي أماكن توحي بالغربة , والعزلة , والضياع، وبعكس أماكن المكوث التي توحي بالاستقرار , والألفة , والحماية.والتحول المكاني في رسائل الشريف الرضي الشعرية لم يكن كثيفاً كما هو في الأماكن الثابتة، لأنّ الشريف الرضي يلتزم بالواقعية في التعبير المباشر للمرسل إليه ليعبر عمّا في خلجاته، وعلى الرغم من ذلك ظهر التحول المكاني في باعث العتاب خاصةً، وقد يتحول من أمكنة معادية إلى أمكنة أليفة ويعود السبب إلى من يشغل المكان فإن كان قريباً للذات , كان المكان أليفاً وإن كان عدواً غير مرغوب به عند الراوي , فالمكان يكون معادياً مع أنه أليف في الواقع.[26]وهذا ما نلمسه في(وصف المعارك) أو(ذكر الصحراء) فهي أماكن في واقعها غير محببة ، لكن تحولت دلالتها لتكون قريبة لذات الراوي ليكشف للمروي له مقدار العتاب وألم الانقطاع بينهما، ومنها قوله:

فإلى متى ينشي عتابك هَبوة وتشنها قالا عليّ وقيلا

في كل يوم غارة ما تنقضي إلا وتثنـي سيفه مفلولا

إن الذي قصد المدائح غلة أحرى بان يجد الهجاء غليلا[27]

يصور الشاعر المعركة بينه وبين الوشاة باستعمال ألفاظ (تشنها، ويوم غارة، وسيفه، ومفلول) وهذه الألفاظ تمثل أدوات المعركة التي تعد مكاناً معادياً ، ولكن هنا تحولت دلالياً من أرض نصر وشجاعة تمثلت بـ(ما تنقضي إلا وتثني، وقصد المدائح غلة، ويجد الهجاء غليلا) فهذه المعركة تمثل أرض الانتصار للراوي على الوشاة ويخبر المروي له عن هذا الانتصار الذي حققه على الواشين المعتدين في القول، ولا بد له أن يهجوهم كي يفضح أمرهم ويكشف حقدهم وزور قولهم.وفي رسالة شعرية أخرى يصف الراوي التحول المكاني في(الديار) من ديار كانت في الزمن الماضي ديار الحسن، والأمن، والكرم قبل النكبة التي لحقت بصديقه وهو يسأل عن حاله بعد تحول وتغير الزمان والمكان عليه لتصبح الديار عدواً وملاذاً للمتخاذلين، ورمزاً للجبن والفناء لساكنيها، وذلك في قوله:

ديار ينبت الاحسان فيها ونبــت الأرض تنوم وآاءُ

وقد كان الزمان يروق فيها وتشرب حسنها الحَدَقُ الظماءُ

ودار لا يلذ بـها مقـيم ولا يغشى لساكنها فــناءُ

تخيب في جوانبها المساعي وينقص في مواطنها الابـاءٌ

وما حبستك منقصة ولكن كريم الزاد يحرزه الوعــاءُ[28]

تحولت بنية المكان سردياً بين طرفين فاعلين في النص (المروي له والفاعل الغيبي)، فتارة تقف بجانب المروي له في محنتهِ، وتارةً أخرى تكون عوناً لغدر الزمان ومنغصاته، من كثرة الهموم وتزاحم المصائب، يصف الراوي المكان في مواصفات مختلفة قبل التحول, إذ كان يحمل صفات (ينبت الإحسان، والزمان يروق فيها، ويشرب حسنها الحدق) وبعد التحول أصبحت صفات المكان(دار لا يلذ بها مقيم، ولا يغشى لساكنها فناء، وتخيب المساعي، وينقص الإباء) وهذا التحول السردي في الوصف اقرب للتحول النفسي وعدم الاستقرار على حال، فنجده رديفاً له في مواجهة الظلم والتعسف، ناهيك عن تواجده الضدي مع الزمن المعادي كما يصفه الراوي.

المبحث الثاني أفق الانفتاح وكينونة الانغلاق

لعلَّ الإشكالية السابقة تحيلنا إلى ثنائية جديدة أخرى هي ثنائية المفتوح \ المغلق فكل شيء في عالم الطبيعة مفتوح(الأرض، والصحراء، والبحر، والسماء)، والأماكن المفتوحة تشكل حضوراً دائمياً في الرسائل الشعرية, لأن الطبيعة عالم منفتح وهي مصدر الجمال في الكون، ولقد ظلت الطبيعة بمكوناتها المختلفة ميدان المبدعين من الشعراء والكتاب يستمدون منها معاني الأشياء في الواقع , ويصورون فيها دهشتهم حيناً ومعاناتهم حيناً آخر , وكان الشريف الرضي من الذين يلوذون بهذه الطبيعة حين تضيق به زحمة المكان في المدينة، فيهرب إليها ناشداً الراحة في عوالمها الآمنة التي لا تعرف الحدود , فتنبسط أساريره , وتنطلق أحلامه مع أشياء كثيرة من التأمل بعيدا عن واقعه الاجتماعي الصعب , وأكثر مكونات الطبيعة حضوراً في الرسائل الشعرية هي السماء، وهذا السقف المرفوع بغير عماد تجسيداً لقدرة الخالق وإعجازه، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً.[29]﴾والسماء صورت دلالات شتى أبرزها معاني السمو و العلو والمنزلة المرموقة التي تطمح الذات بالوصول إليها على الرغم من الموضع الرفيع الذي يحتله في الواقع والمنصب الذي يشغله لكنها ظلت دائمة التطلع إلى كل ما هو سام مميز، فنلمس من استقرار أشعاره تلك النفس المتعالية , والهمة الأبية , والطموح الذي لا حدود له، و ما استوعبته من آفاق السماء الرحبة , وخلجات نفس , ومكنونات ضمير , فكانت إشارة مكانية لطموح لا ينتهي و أفق لا حدود له، فعلاقة الذات بهذا الفضاء المكاني علاقة روحية تحمل دلالة الانفتاح والاستشراف فالراوي يستمد من بعد السماء وارتفاعها وعدم وجود أبعاد محددة لها رمزا لطموحاته غير المتناهية التي لا تحدها حدود ولتأملات ذاته و سعة آفاق نفسه التي تعانق أفق السماء لترسم له طريقا يود السير فيه و يأبى الحياد عنه, وباستقراء الرسائل الشعرية للشريف الرضي تتجلى بنية السماء فيها ومنها:

لقـاؤك جرّ عليّ الفراقا وما زادني القرب إلا اشتياقا

وجيب على الصبح ثوب الظلام والبدر يخلع عنه المحاقا

وكـنتُ أُخيّلُهُ في السـما ءِ رمحةَ طرفٍ اصابَ البراقا

يُشقَّقُ والليلُ رطبُ الذيو ل غلائلَ تندى نســيماً رقاقا[30]

يكشف الشاعر في السرد عن ذات المروي له، فذاته تتعانق مع السماء وتنفتح آفاقها لتحتضن همه عالية لا تحدها حدود ولا تقيدها اتجاهات، إن اختيار الشريف الرضي لمثل هذه الأماكن المفتوحة اللامحدودة والفضاءات الواسعة لما يجد فيها استيعابا لحاجات نفسه من ذكر صديقه وشوقه اليه، ولكنه وجد من السماء العالية، فضاءً يَعْبُرُ بوساطته عن ذاته وذات المروي له وفخرهما بأنفسهما وعن الشوق والحنين لبعضهما.أمّا الأرض فتوحي إلى جدلية العالي والمنخفض فهي تكون مع السماء ثنائية حميمة, ودليلاً إعجازياً لقدرة الخالق _ عزَّ وجلَّ _ وتفرده في خلقها, يستوي في ذلك خلق الطبيعة، وخلق الإنسان[31] والأرض بيئة الإنسان وعالمه والمكان الذي يرتبط به منذ بداية الخلق[32] وحتى قيام الساعة، لذا فالإنسان دائم التفاعل مع الأرض سلباً وإيجاباً, والراوي واحد من الذين تفاعلوا بعمق مع هذا المكان الواسع ونستشف من استقراء رسائلهِ الشعرية الأفق الواسع للمكان ومنها قوله:

قضى الله لرايات ك بالإظـهار والغلب

وأصفاك بملك الأر ض من شرق إلى غرب

وأغنى بك من عدم وأسـقى بك من جدب

وولـى بأعـاديك مــع الزعازع النكب[33]

يظهر الشاعر في مديحه للملك بهاء الدولة وصفاً لسعة الأرض ورحابتها، وعلى الرغم من المساحة الواسعة فأن الملك يحكمها من الشرق إلى الغرب, من دون ملل أو كلل، أو إخلال في الحكم والسلطة، ويؤكد الراوي أن الله تعالى ناصرك على أعدائك وظاهر راياتك عالية من مشارق الأرض إلى مغاربها.أمّا المكان المغلق فهو المكان الذي يخص فرداً واحداً أو أفراداً عدة ويتحرك الفرد في دوائر متراكزة من الأماكن تتدرج من الخاص شديد الخصوصية إلى العام المشاع بين كل الناس ولكل من هذه الأماكن دلالتها[34] والأماكن المغلقة لم تظهر في رسائل الشريف الرضي الشعرية كما ظهرت بارزة الأمكان الواسعة، ونجدها في بعض النصوص الرسالية محدودة باسم ما(اسم مدينة أو اسم معركة)، و إن دلالة المكان المفتوح تكون عادة مقترنة بـ(الحالة النفسية المستقرة، والفرح، والسعادة، الحرية)على حين يكون اقتران المكان المغلق بمعاني الحزن، والعزلة، الانطواء حتى الكبد، والاضطهاد, ومنها قول الشريف الرضي في رسالة شعرية إلى الملك قوام الدين يعزيه فيها:

ألم يقنعك بالأهواز منه قطار غيم عارضه القتام[35]

صرح الشاعر باسم مدينة(الأهواز) التي كان يقطنها المروي له، وذكر صفات المدينة أو ساكنيها، لأن الموقف يمثل باعث حزن وتعزية ، فجاء بمكان مغلق في فكر المروي له إذ لا يستطيع المروي له التجوال ذهنياً في فضاء أرضي محدد, لا وجود له سوى الاسم الدال على مكان إقامة المروي له كقوله:

بأربق حط عارضه واجلى عن الاعداء والاعداء هام

وأرسلها تخب بدار زين عبــاب اليم لج به التطام[36]

يحشد الشاعر في النص أسماء قرى(اربق) قرية برامهرمز و(هام) اسم قرية في اليمن، ولم يكشف عن خبايا هذه الأماكن في النص لا بالوصف الجغرافي أو الوصف النفسي لساكنيها. و اكتفى بالوقوف على تسمية هذه القرى، وأراد من استدعائها تعزية المروي له بذكر قرى بعيدة عنه تضميناً لدلالات الهجر والبعد والفراق وللتخفيف عنه لما فيه من عزلة ووحشة بسبب الحزن, و كما قال:

سقى الله دهراً حبانا الودا د مبتدهاً فشكرنا العراقا[37]

إنّ العراق أرض نماء وقوة عند الراوي فألفاظ(سقى، وحبانا، وفشكرنا، والعراقا) وهو يمثل موطن الاستقرار والنماء، وغيره من المدن والأماكن التي تمثل الاغتراب الذاتي عند الراوي والمروي له , وبذلك ينفتح المكان المغلق دلالياً على انثيالات نفسية فتعمل في ذهن المروي له تداعيات دلالية تخفف وطأة الانغلاق , وماتكابده الشخصية من ألم وكبت وتتخلق في اليوتوبيا آمال وطموحات ذاكراتية ومستقبلية .

المبحث الثالث سوسيولوجيا المكان والمحددات النفسية

للأدب سمة سوسيولوجية تدغم بها الأحاسيس النفسية، فيكون الأدب صورةً للذات والذات ثيمة في الأدب، ويغدو النص مرآة عاكسة للوعي الباطن وما ترسمه الأحاسيس الداخلية للشخصية في نزاعاتها ورغباتها، فترصد الأمكنة في النص على أساس ميل الشخصية ومحمولاتها الفكرية وتكون البنية النصية دليلاً تتحد به رغبات الذات وشعورها، ولما كانت البنية السردية لا تقوم إلا في مكان، فذلك يعني أن المكان وطريقة رسمه في النص السردي رؤية نفسية تشي بقدرة الراوي ودرجة إدراكه لماهية السرد، فيأخذ المكان دلالات الألفة تارةً ودلالات الكره والنفور تارةً أخرى.والمكان الأليف هو الذي نتلاءم معه ونشعر فيه بالألفة والأمان ويمثله البيت لأنّ البيت((يكثف الوجود حدود تتسم بالحماية))[38] ، إلّا أنّ الإحساس بالألفة لا يقتصر على البيت فحسب , بل قد يشمل أيضاً الأماكن العامة مثل مدينة، وحارة، وشارع، مقهى.[39]أمّا المكان المعادي فهو الذي لا تألفه ولا تنسجم معه الشخصية، فهو كثيراً ما يهدد أمن الإنسان فلا يعود يشعر بالطمأنينة، ويشعر نحوه بالنفور والابتعاد[40] والمكان الأليف والمكان المعادي يحددان الفعل النفسي الذي يعكس شعور الإنسان وأحاسيسه تجاه احدهما, وقد اكتنفت رسائل الشريف الرضي الشعرية ثنائية المكان وفق محدوداتها النفسية , بيد أن المعاداة والألفة لا تعني أن المكان في الرسالة الشعرية متطابق مع بنيته السردية من توصيفات بل يعني أن المكان الأليف أو المعادي يدغم بالمحددات النفسية , فيعاد انتاجه مرة أخرى في ضوء أحاسيس الراوي وميله الشعوري, فلا غرابة أن يألفن المكان المعادي أو يستبعدن المكان الأليف , مما يشكل طريقاً على تشكيلات بنائية محددة واستجابة لمؤثرات نفسية تحاول أن تؤسس للمكان رؤية جديدة خاصة فيه ألفة المكان وقربها بقوله:

بيتُ جُودٍ تُكفَى النَّوائبُ فيه وَجِفانُ القِرى به لَيس تُكفا

عندهُ النَّارُ أُوقدتْ باليَلنجو جي تُـذكى عرفاً وتُجزلُ عُرفَا[41]

لقد وصف الشاعر بيت المروي له(المخصوص أو المقصود) بالكرم بذكر(جود، وتكفى النوائب، وجفان القرى به ليس تكفى) فأراد إظهار ألفة هذا المكان بالنسبة له، ولزوار المروي له، مادحاً الموطن الذي يقطنه وصفاته فضلاً عن مدح المروي له بذاته ، ولم يكتفِ بذكر الوصف المعنوي للمكان ، بل سرد وصفا مادياً لرائحة المكان، وإنه يستعمل أجود الروائح وأذكاها ، لينشر شذاه على المدى ، ولا ينسى ذلك العبير كل من وصل إليه , ومن الأمكنة المعادية التي أظهرتها البنية السردية في نصوص الرسائل الشعرية أماكن مغلقة التي تتجلى فيها الدلالة النفسية للشخصيات والوعي الباطن للراوي، ومنها قوله:

فإلى متى ينشي عتابك هبوة وتشنها قالا عليّ وقيلا

في كل يوم غارة ما تنقضي الا وتثني سيفه مفلولا

إن الذي قصد المدائح غلة أحرى بان يجد الهجاء غليلا[42]

يذكر الشاعر في عتابه لأحد أصدقائه وصف معركة معنوية يصورها له بأفعال لغوية(تشنها، وما تنقضي، وتثني سيفه، ويجد الهجاء) ، ويظهر الراوي واقع المعركة بينهما(في كل يوم) ويمثل مكانا معاديا له وللمروي له في آن واحد, ولكن ليس هناك معركة بينها في الواقع لكن البعد والجفاء جعل الراوي يرسم لوحة المعركة ليصور بوساطتها المكان المعادي بفعل أحاسيس العداء التي يظهرها الصديق من هجاء وكثرة أقاويل الوشاة , ومنه قوله :

قنـــــابل تـحفزها إلـــــى الردى قنـــــابل

جمـــع كشجـــراءِ اللديديـــن لـــــه ارامـــل

يخشـــى عواليـــه وراء الحبـــر المقاتـــــــل

كـــــان معـــروض القنـــا ينقلـــــه الصواهـل[43]

يصور الراوي أرض شجراء في جانب الوادي التي تكثر فيها الأرامل هي شجر العرفج , بأنها مكان أليف , ويشبه بالمكان الذي يجمع فيه المروي له الجيوش المنتصرة بقيادة الشجاعة , فاصبح المكان أليف بعد التشبيه الحاصل بين جموع الجيوش المنتصرة والديدان في شجراء.

الخاتمة

نستخلص ما جاء في البحث بعد الاستقراء والتحليل الآتي:

١. شكل المكان البيئة السردية التي تعد من عناصر السرد المهمة، وكان لها الأثر في احتواء فضاء البنى، وجاء المكان مكثفا بشقيه المبهم والمحدد ليعبر الراوي بوساطته عن شعوره اتجاه بيئته التي يعاني منها، وعن الشخصيات التي يعبر عنها في بواعث الرسائل الشعرية.

٢. إنَّ المكان وما يحمله من سمات جاء ليعبر عن الوقائع والتجارب، والعجز عن التواصل مع الآخرين والانكفاء والعزلة والشعور بالغربة في مقاصد العتاب والشكوى والشوق لذا عَبَّر بوساطته عن مرارة الواقع الذي لا يمنح أبناءه سوى الألم والحزن والأسى.

٣. مثل الشاعر بوساطة اماكن سردية مواطن الراحة والاطمئنان النفسي, وتتجلى الامكنة السردية في رسائل الشريف الرضي الشعرية وهي تتناوب في التشكيل بين الثبات والتحول , والانغلاق والانفتاح , وبنية السوسيولوجية النفسية.

هوامش البحث

[1]() ينظر: فن القصة: ١٠٨.

[2]() ينظر :جماليات المكان: ٤٥.

[3]() جماليات المكان: ٤٥.

[4]() جماليات المكان: ٧٦.

[5]() الفضاء الروائي : ١٧٤.

[6]() دلالة المكان في مدن الملح لعبد الرحمن منيف : ١٩.

[7]() المكان في الشعر العربي قبل الإسلام : ٣١.

[8]() التفسير النفسي للأدب : ٦٤.

[9]() دلالة المكان في مدن الملح لعبدالرحمن منيف : ٢٣.

[10]() ينظر: الحداثة والتجسيد المكاني للرؤية الروائية (رواية مالك الحزين انموذجا) : ١٧٢.

[11]() ينظر: في نظرية الرواية : ١٤٣.

[12]() ينظر: المؤثرات العامة والخاصة في شعر الشريف الرضي: ٦٣.

[13]() جماليات المكان في الرسم العراقي المعاصر: ٤٦.

[14]() ينظر: المكان في شعر الشريف الرضي : ٦٦.

[15]() ينظر: جماليات المكان : ٩.

[16]() ينظر: المكان كمصطلح تاريخ فني في فنون العراق القديم : ٧٨.

[17]() ينظر: قراءة ثانية لشعرنا القديم : ٥٥ .

[18]() ينظر: الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام : ١٩٣.

[19]() الحماسة في شعر الشريف الرضي : ٥١.

[20]() ينظر: قراءة ثانية لشعرنا القديم : ٥٣.

[21]() ينظر: المكان وجغرافيا النص : ١٢٣.

[22]() الديوان ٢/ ٧٢٩, و ينظر مثله : ٩٦٣/٢، ٨٧٣/٢، ١٤٠/١.

[23]() الديوان : ٨٧٣\٢.

[24]() ينظر: المكان والرؤية الإبداعية : ٣٧.

[25]() ينظر: الزمان والمكان في شعر الرواد في فلسطين: ١٥٧.

[26]() ينظر: جماليات المكان : ٤٥.

[27]() الديوان : ٢/ ٦٩٦, وينظر مثله : ٦٩٤/٢.

[28]() الديوان: ٢٨/١, تنوم : اسم شجر كذلك آاءُ.

[29]() سورة هود: آية : ٧.

[30]() الديوان: ٥٨٠/٢، وينظر مثله : ٢٨/١، ٤٥٨/١، ٥١٧/٢، ٥٤٨/٢، ٥٦١/٢.

[31]() ينظر: الطبيعة في القران الكريم : ٢٢٤.

[32]() ينظر: الزمان في الفكر الديني والفلسفي القديم : ١٠٩.

[33]() الديوان: ٤١/١, الزعازع: الشدائد.

[34]() ينظر : القارئ ونص الدلالة : ٣٩٦.

[35]() الديوان: ٧٣٥/٢.

[36]() الديوان: ٧٣٥/٢.

[37]() الديوان: ٥٨٠/٢.

[38]() جماليات المكان: ٣٧.

[39]() ينظر: البناء الفني في الرواية العربية في العراق: ٩٩.

[40]() ينظر: جماليات المكان: ٣٧.

[41]() الديوان: ٥١٨/٢، اليلنجوجي: عود طيب الرائحة يتبخر به.

[42]() الديوان: ٦٩٧/٢، وينظر مثله : ٢٦/١، ٣٩٥/١.

[43]43)) الديوان : ٦١٧/٢.